ثورات العربان وأثرها في الاقتصاد المصري
زمن سلاطين المماليك
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

إعداد
دكتور/ سيد محمود محمد عبد العال
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب –جامعة الفيوم

يتناول هذا البحث ثورات العربان في مصر زمن سلاطين المماليك، مفهومها وأسباب قيامها والأثر الذي تركته علي الاقتصاد المصري في ذلك العصر، وذلك في مجال الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية والإنتاج الصناعي، وعلي النشاط التجاري الداخلي والخارجي، وحركة الأسواق والأسعار.

فقد شكلالعربان شريحة اجتماعية متميز ة في مصر عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري وبخاصة في أقاليم الشرقية والبحيرة والمنوفية في الوجه البحري،و أقاليم قوص وأسيوط والأشمونين في الوجه القبلي.

وقد حمل العربان راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك دون شرائح المجتمع المصري جميعها،و علي الرغم من الأساليب الوحشية التي استخدمها ضدهم المماليك فلم تخمد ثورات لعربان طوال العصر المملوكي، ولم تخل سنة من السنين من ثورة في الصعيد أوفيالوجه البحر ي، وكانت هذه الثورات تستهدف ضرب المماليك ومهاجمة الاقطاعات التي يحوزونها والاستيلاء على المحاصيل الزراعية وحرمان المماليك من خيرات البلاد' ومن ثم اتسم عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات العربان وانتفاضاتهم ضد الدولة المملوكية

أما عن موقف السلطات المملوكية من ثورات العربان، حيث قابلت تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي تسببت في تدمير البلاد التي مرت بها.وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والشدة المفرطة، وتعدد أساليب القتل من التوسيط والتسمير والعصر

ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء،وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلي،وسبى النساء ومصادرة الأموال

ولجأت السلطات المملوكية إلي استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتال هؤلاء العربان علي اعتبار أنهم "مفسدون "و"خارجون علي الطاعة " تجب محاربتهم،فأفتوهم بجواز ذلك. وكان الحصول علي هذه الفتوى سند شرعي يبرر الأعمال الانتقامية التي يقوم بها المماليك ضد هؤلاء العربان والتي وصلت حد الإبادة الجماعية.

وتركت ثورات العربان أثارها السلبية علي الاقتصاد المصري وبخاصة الإنتاج الزراعي حيث تم تدمير الجسور وا ٍغراق الأرض الزراعية بمياه الفيضان وتكسير الآلات الري وحرق الغلال في الجرون.

كذلك كشفت الدراسة حجم الثروة الحيوانية الكبير وبخاصة من الخيول والإبل والأبقار والأغنام التي تم الاستيلاء من العربان بحيث لم تستطع المصادر المعاصرة أن تمدنا بأرقامها لأنها تخرج عن الحصر.

فضلا عن ذلك فقد أثر هذا الصراع علي الإنتاج الصناعي وخاصة صناعة السكر حيث نهبت معاصر السكر وأخذت الأبقار التي تديرها ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر

بالإضافة إلي ذلك فقد أثرت ثورات العربان علي التجارة الداخلية في مصر حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية،وتم الاستيلاء علي المراكب التجارية من نهر النيل،ومنع وصول الغلال إلي القاهرة وبالتالي ارتفاع أسعار السلع في القاهرة خاصة السلع الغذائية مثل اللحوم والغلال والبقول

لم يقتصر تأثير ثورات العربان علي التجارة الداخلية وطريقها، بل امتد تأثيرها إلي التجارة الخارجية وطرقها سواء طريق عيذاب إلي قوص والخاص بتجارة الكارم أوعلي الطريق مصر والنوبة أو علي الطريق بين مصر والشام مما ساهم في إضعاف التجارة الخارجية بالاشتراك مع السياسة الاحتكارية للمماليك،والحصار الاقتصادي من جانب الغرب الأوروبي،وحركة القرصنة علي الشواطئ المصرية، ومحاولة إيجاد طرق بديلة بعيداً عن سيطرة المماليك.

وكان لثورات العربان تأثيرها علي نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، وكان يعد المورد الرئيس لدخل سلاطين المماليك وأمرائهم وجنودهم،كما كان الخراج يعد المصدر الأساسي لدخل الدولة في عصر المماليك والامتناع عن دفع الخراج معناه ضرب نظام الإقطاع في مقتل وحرمان المقطعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء والجنود وبالتالي إضعاف الجيش المملوكي.

وقد تأثير ثورات العربان علي الاقتصاد المصري، فقد تأثر نظام الوقف الذي خضعت له كثير من الأراضي الزراعية ،بسبب اعتداءات العربان من قتل الفلاحين وغرق الأرض ونهب الغلال

وبالتالي الأثر السيئ علي الجهات الموقوف عليها هذه الأراضي. كما أدي الصراع بين العربان والمماليك إلي تدمير البنية البشرية لسكان مصر في عصر كانت المجاعات والأوبئة بمثابة معول هدم لهذه البنية البشرية من ناحية أخري.